الحسناء

الجزء الثامن — المجلد الاول

بيروت في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩١٠

جورج اليوت

مارى الانس

عززت مقام النساء عند الرجال وأريتهم كيف تستطيع المرأة مجاراة الرجل في الكتابة والتأليف . شأن البارونة دي ستال والمركيزة دي سفينيه . فماشرها كبار العلماء ونخبة الفلاسفة والحكماء راحبها الناس عندما اطلعوا على كتاباتها وعدّوها من افضل الكاتبات . لان ما اتحفت به العالم من بنات افكارها نظماً ونثراً وما اجادت به في رواياتها وكتبها وصفاً وتعبيراً وما نعمدته من المواضيع المفيدة زجةً وتأليفاً او تخيلاً وتصنيفاً كل ذلك قد برهن على مبادئ شريفة فياضة وصارف وافرة في الاداب والفنون وفي الاخلاق والاجتماع وفي الفلسفة والعمران . ودلّ على استعداد طبيعي واقتناء الاحوال فأثر للانسانية خيراً جزيلاً تذكره لها بالامتنان . زينت اداب اللغة الانكليزية ونالت في تاريخها مقاماً رفيعاً فاحترمتها اشهر الكليات في انكلترا واميريكا ومثلها الكلية السورية فحسبن انشاءها من الدروس المهمة واوجبن درسه كانشاء اعظم الكتاب . وقد اشتهر امرها بغير اسمها فعرفها الناس باسم جورج اليوت

وقل من علم بانها ماري إفانس

ولدت في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٨١٩ في مزرعة اربري من مقاطعة وارويكشير وكان روبرت إفانس ويلسي الاصل حميد السجايا كريم النفس مارس النجارة في فتوته ثم احترف الزراعة فاصاب منها حظاً وافراً جعله ذا مكانة ونفوذ وناله مقاماً سامياً اهله له نشاطه وثباته ومكنه منهجده واماته واستقامة مبدائه فظل يعامل اشراف البلاد بالاحترام والاكرام وشركاءه بالمحبة والاخلاص وفعاته باللطف والشهامة. وكانت امها فاضلة جليلة طيبة الصفات حسنة الاخلاق تعرف واجباتها وتقوم بها

فاستفادت ماري من رفعة مقام ابيها افادات جمة مكنتها من درس احوال البلاد واستطلاع شؤون الامة فبحثت بحثاً دقيقاً في عادات الاشراف سادات تلك البلاد والتجار وكلاء املاكهم والفعلة المستخدمين فيها ودرست اخلاقهم درساً وافياً فعلمت مطامعهم ومشتهياتهم وادركت مبلغ اتعابهم فتوسعت في الاطلاع والاختبار فتأهلت لمستقبل باهر ساعدها عليه العيش مع عائلة تقية في بيت خلا من الفجار والسكر من الغيّ والكذب من المشد والحمرة والموضة. في قرية بسيطة لا تكاليف فيها ولا بالات ولا ياتارات. بين الحقول الجميلة والحدائق الغناء

تعلمت مبادئ العلوم الاولية في مدرسة صغيرة في نونياتون ولما بلغت الثانية عشرة من العمر ارسلها والدها الى مدرسة في كوفنتري فصارت شأن كل مدركة حكيمة تدأب في الدرس والمطالعة اجتناء للعلوم والمعارف للاداب والفضائل والفوائد الثمينة التي لا يتسنى لها اجتناؤها في كل وقت. فدرست عدا عن دروسها الفاتونية الانشاء في لغتها الانكليزية واللغتين

الفرنسوية والالمانية وبرعت بذلك ، ولكن سوء الحظ قضى عليها بعدم المكث كفاية في هذا المعهد العلمي . لان والدتها اعتراها داء اتلف جسمها واودى بحياتها فاضطرت الى الرجوع الى البيت تندب حظها وتشكو من جور الزمان

بيد ان حزنها لم يصرفها عن الدرس والمطالعة . وتدبير منزلها لم يمنعها من الجري في مضمار العلوم والفلسفة بل كانت تغتنم فرص اوقات الفراغ من الاعمال المنزلية وتعكف على البحث والتنقيب وقد اهتمت بتعلم الموسيقى واتقان اللغتين المتوه بهما انفاً ولم تدع فرصة تذهب سدى

ولما انتقلت مع والدها الى كوفنتري وهي في الحادية والعشرين من عمرها تعرفت الى كبار رجال العلم فيها وصادقت بعضهم مثل نشارلس براي الكاتب الاجتماعي الشهير واضع كتابي (تربية العواطف) و (فلسفة الاحتياج) وتشارلس هنل واضع كتاب (بحث في اصل الديانة المسيحية) فكان هذان العالمان عاملين عظيمين على ازدياد ثروة ذهنها وتوسيع مداركها وتوفير رغبتها في السعي وراء الاداب اللغوية والعلوم

شرعت سنة ١٨٤٤ في ترجمة كتاب (حياة المسيح) تأليف داود استروس وانجزته فيها فجاء كتاباً فصيح العبارة بليغ المعاني عدّ بين كتب اداب اللغة الانكليزية المهمة فاقتناه كثيرون رغبة منهم في احراز جزيل منافعه واكتساب عميم فوائده . ثم ترجمت كتاب (جوهر الدين المسيحي) تأليف العالم الالماني لدويك فاربالك . وهذان الكتابان اللذان ينفان على الخط الفاصل بين الفلسفة والدين قاداها الى التعمق في البحث في الفلسفة

وبقيت الى السابعة والعشرين مهتمة كل الاهتمام بدرس العلم والدين . غير ان المقالات التي نشرتها بعد ذلك هيأت لها الانتقال الى عالم اللغة

والتوسع فيه

توفي والدها عام ١٨٤٧ فتأسفت عليه كثيراً ولشدة حزنها رأى صديقها براي وزوجته ان السياحة ضرورية لها فسألاها الذهاب معهما الى سويسرا وايطاليا تنزيهاً لافكارها لئلا يؤدي بها الحزن الى الضعف والداء فرافقتهما ومكثت في جنيفا ثانية اشهر ولقد طاب لها البقاء فيها لان على شواطئ بحيرتها كانت تتجلى ارواح كالفن المصلح وروسو وفولتير الفيلسوفين ومدام دي ستال العظيمة وبيرون وشلر الشاعرين

ولما عادت الى انكلترا اقامت سنة في منزل براي ثم انتظمت في سلك محرري مجلة وستمنستر اجابة لطلب الدكتور جون تشاسبمن وسكنت مدة في بيته حيث احاط بها عدد وافر من نخبة العلماء والفلاسفة والكتاب مثل هربرت سبنسر الفيلسوف الكبير وكارليل المؤرخ الشهير ومارتينو وفرنسيس نيومن وجورج لويس وغيرهم من كبار الرجال وكبيرات النساء

وكانت صداقتها مع جورج لويس متينة العرى فعاشت معه مدة في بيت واحد فرأى منها ما جعله يؤثرها على زوجته فطلق هذه واقترن بها وهذا ما لام عليه جورج إليوت اشد الملام

بعد الزواج ذهبت وزوجها الى المانيا واقاما في برلين حيثما الف هو كتابه (حياة كيت) وترجمت هي كتاباً للفيلسوف سبينوزا في (الاداب) ثم رجعا وسكنا في لندن

وبدأت في السابعة والثلاثين من عمرها في تصنيف الروايات وتأليفها ولعل الزواج دفعها اليها فاستجمعت كل قواها واستخدمتها في هذا السبيل حتى استطاعت ان الف الناس بروايات جميلة مفيدة ابدعت فيها بدائع مشهورة مبرهنة على علم وافر باخلاق الناس وعاداتهم واحوالهم قلَّ من اجاد

بابداعه اجادتها به وذلك باسلوب رشيق سهل التناول عظيم التأثير جعلها تبلغ منزلة رفيعة بين الكتبة السالفين وتفوقهم ايضاً بقوة الوصف والتعبير . وروايتها عديدة مختلفة المواضيع مثلت بها الناس تمثيلاً واضحاً اكيداً كله عبر . وطريقتها فيها وفي كتبها ومقالاتها من ابدع الطرق واكملها وانعتها كانت ولا زال معدودة من افضل ما استعملته يد كاتب انكليزي ولا زال مصنفاتها محسوبة من كتب اداب اللغة تدرّسها اشهر الكليات الى اليوم

ولها مع نثرها شعر لطيف واشعارها كثيرة ملذّة ألفت احدى رواياتها (البدوي الاسباني) كلها منها . اما لم تشتهر بالشعر اشتهارها بالنثر

داومت الكتابة نحو اربعين سنة ولم تمل منها . ثلثا عمرها صرفتهما كاتبة . سبعة اعشاره عاشت بين الاوراق والاقلام . كل ذلك دون ان تتأفف . ولم تترك الكتابة بتة الا عندما توفى زوجها عام ١٨٧٨ وهي في التاسعة والخمسين . وكأنها كرهت ان تعيش بعده منفردة وحدها فاقترنت باحد الافاضل . لكنها لم تحيَ معه كثيراً بل توفيت بعد قليل من الزمن وعمرها واحد وستون سنة . فتمنى لكاتباتنا مثل هذا العمر مع الشهرة والاجتهاد

المرأة الفاضلة من يجدها

على ان المرأة الفاضلة التي يهواها العاقل ويطالبها الوطن بالخدمات الجزيلة هي ليست فقط ذات الجسد الجميل ذات العين السالبة الالباب والخد الفائق الورد في النضارة والبهجة والشعر الحالك كالليل . فالمرأة الفاضلة هي التي ان منحها الله حسناً تشكره لاجله . ولكنها تعلم ان فيها ايضاً عقلاً يجب تثقيفه لكي يدرك الحقيقة ويترك الباطل وان فيها